انها تمثل أحيانا وجهات نظر متباينة . على انه في القسم الثاني ينتظم تناوب زوايا الرؤية بين علي وكابليوك ، ربما علامة على شدة بروز النقيض واكتمال عناصره ، وهو تطور قوي لصالح الرواية .

وتعج رواية « النقيض » بالرموز ، فهناك العم والأم والبندقية والفلاح أمين والأب وروزالي ، وكذلك البطلان علي وكابليوك . وكلام الرواية كله ينحو منحى رمزيا ، ولكنه رمز غير مغرق ولا يكتنفه الغموض الشديد ، وان كان يشكو كثيرا من التداخل والتفاوت في ثقل المعنى المنسوب اليه : فكأنما اراد له الكاتب ان يكون رمزا وواقعا في وقت واحد . وكأنه كان يخشى ان تفلت منه حرارة الواقع او دقة الاشارة المقصودة ، ولذلك كثيرا ما كان يعدل عن الرمز الى الواقع وعن الايحاء الى التقرير ، وقد دفعه الى ذلك دفعا ان تركيب الرواية لم يسمح لكثير من الأفكار بأن تتجسد تجسدا فعليا ، فما كان منه الا ان أردفها دائما بالشرح المباشر ، وهذا ما يقود الى التساؤل عن وظيفة الرمز في هذه الرواية وعن جدواه وفعاليته . الم يكن الرمز مجرد « وسيلة ايضاح » ؟

ان اللغة أيضا لا تطيع المؤلف بالحد الذي يريده ، ولا تنساب ذلك الانسياب الرائق القادر على حمل القارىء على جناحين من الفهم والتأثر . انها أشبه بلغة مقدودة من صخر. ومع ذلك ، فانها لا تصيب كبد المعنى المقصود ، وهي في الأغلب تقارب ولا تصمي . وهناك كلمات كثيرة اجنبية ، كالأوتيل والبارمان والباترون ، وهناك تعابير كثيرة أعجمية ولا سيما في الحوار الذي يبدو أشبه بالترجمة الرديئة .

وبالطبع ، قد يكون الأمر مقصودا لأن المحاور الأخر هو دائما طرف اجنبي. فكأن المؤلف يريد ان يضع الحوار في جوه الطبيعي . غير ان ذلك يصعب ان يعد تسويغا كافيا . فمن جهة لا يبدو « علي » اقل عيا من اقرانه في الرواية . ومن جهة اخرى تدل التجارب الروائية انه يمكن التوصل الى اللمسة الطبيعية للحوار عن طريق سيولة لغوية حية محقونة بحسن التصرف الفني الذي يحميها من فقر الدم اللغوي .

***

ويستعين المؤلف بكفاءة واضحة بشتى اشكال الذكريات والاحلام وأحلام اليقظة وتداخل المشاعر وتناوب الشعور بالزمان والمكان،وهو محيط احاطة كاملة ، بأصول هذه الحيل الفنية ، ويظل اجمل ما في الرواية فنيا ان بطلها « علي » هو في وقت واحد رمز وغير رمز ، وانه موجود في عالم الواقع ولكن وجوده مجازي ، وهو يسري عن نفسه بملء فجوات وجوده بالكلام والعمل والحب والتسلية والتألم والتذكر ، ولكن وجوده الحقيقي يظل قائما في مكان آخر وزمان آخر . وهو لايستطيع ان يستل عالمه الداخلي من شبح (وربما طيف) هذه الحقيقة ، لأن هذا الشبح الذي يأخذ شكلا كابوسيا في كثير من الأحيان لا يفتأ يلاحق حركة حياته ويطغى على وجودها الملموس ويمحو معالمه .

* * *

وأخيرا ، استطيع ان أخمن ان قراءة سريعة للدراسة الحالية يمكن ان تضع القارىء في حيرة من امر موقف الناقد منها : فهو تارة مادح وتارة قادح ، فلنقل اننى ،حلا للأشكال ، ان هذه الرواية محاولة جريئة ربما كانت الأولى من نوعها في ارتياد جوهر التناقض الذي شغل المنطقة العربية والعالم منذ مطلع هذا القرن ، ولنقل ان صاحبها مدرك ضخامة المحاولة وصعوبتها ، ومسلح أيضا بما تحتاجه المغامرة من الأسلحة ، ولكن عمله هذا لا ينبغي ان يعكس بالضرورة ، كل مواهبه التي أظهرتها اعمال فنية اخرى نشرها قبل هذه المغامرة وبعدها .

د . حسام الخطيب